(١)

من سنن الله تعالى الكونية
إجراء المسببات على الأسباب

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم : {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، أجمعين .

وبعد :

فقد جعل الله (عز وجل) للكون سننا وقوانين تحكمه ، وقواعد تسيّر حركته ، فلا يتقدم لا حق على سابق ، ولا يتأخر سابق عن لاحق ، قال تعالى : {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} ، وقال تعالى : {فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} ، ولقد جعل الله (عز وجل) هذه السنن ميزانًا يضبط قواعد الحياة ، ويتحقق به إعمار الأرض ، والحفاظ عليها الذي هو غاية من غايات الخلق ، حيث يقول سبحانه : {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} ، ويقول جل شأنه : {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا}، ومما لا شك فيه أن الأمم التي أدركت حقيقة هذه السنن الإلهية ، وعملت بمقتضاها ، سادت ، وتقدمت حتى ولو لم تكن مسلمة ، بل ولو لم تكن تدين بدين أصلا ؛ لأن هذه السنن لا تحابي أحدًا ، ولا تجامل مخلوقًا .

وإن من سنن الله تعالى الكونية : إجراء المسببات على الأسباب ؛ فلقد خلق الله تعالى الأسباب ومسبباتها ، وأمرنا بالأخذ بالأسباب ، فإذا وجدت الأسباب تحققت النتائج ، وهذا قانون عام محكم ، يجري على الكون كله ، في كل زمان ومكان ، فلكل شيء سببه ، فالنار سبب الإحراق ، والقتل سبب للموت ، والحرث والبذر سبب

للزرع ، والأكل سبب للشّبَع ، والجد والاجتهاد سبب للنجاح ، والكسل والإهمال سبب للفشل ، وهكذا.

إن الأمر بالسعي في الأرض والعمل فريضة دينية ، وواجب شرعي ووطنيّ ، حيثُ يقول سبحانه : {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} ، ويقول سبحانه : {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} ، فهذا مفهوم الدين الإسلامي للسعي والجد والعمل والاجتهاد ، وإعمار الأرض ، فلا حجة لنا حين نتخلف ، تحت أي دعاوى لا تمت للدين بأي صلة ؛ إنما هي دعاوى الخمول ، والكسل ، والتخلف عن ركب الحضارة .

وإن المتأمل في سيرة الأنبياء والصالحين يجد أنهم اجتهدوا في الأخذ بالأسباب في كل شئون حياتهم ، فهذا سيدنا نوح (عليه السلام) كان نجارًا ، وبعد عمر طويل في دعوة قومه أمره الله سبحانه أن يصنع السفينة ، قال تعالى : {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ} ، وكان يمكن أن ينجيه الله تعالى بقدرته بلا سبب ، أو عمل ، ولكن الله تعالى يعلمنا كيف يكون الأخذ بالأسباب ، فاستجاب نوح (عليه السلام) لأمر ربه ، وأخذ يصنع السفينة ، ولم يتوان رغم سخرية قومه منه ، قال تعالى : {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّا فَإِنّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ} ، واستمر في عمله ، وكافأه الله تعالى فنجاه هو والمؤمنين من قومه .

وكان سيّدنا داود (عليه السّلام) حدادًا ، علمه الله هذه الصنعة التي يعود أثرها ونفعها عليه وعلى الناس ، قال تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا

تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (ما أَكَلَ أَحَدٌ طعامًا قطُّ ، خيراً من أن يأكلَ من عملِ يدِه ، وإنّ نبيّ اللهِ داودَ (عليهِ السّلامُ) كان يأكلُ من عملِ يدِه) .

وفي قصة نبي الله يوسف (عليه السلام) كان الأخذ بالأسباب والتخطيط المحكم سببًا لنجاة البلاد والعباد من مجاعة مهلكة ، وخطر محدق ، فقد أخذ نبي الله يوسف (عليه السلام) بالأسباب وأعدَّ خطة طويلة مدروسة ، لإنقاذ البلاد من مجاعة أحاطت بالعالم كله ، فتحقق لبلاده الرخاء والازدهار ، والحماية ، والقوة الاقتصادية ، وجاءه الناس من كل فج عميق لينالوا من خيرات مصر ، وقد ذكر لنا القرآن الكريم ذلك على لسان سيدنا يوسف (عليه السلام) في قوله تعالى : {قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} .

وهذه السيدة مريم (عليها السلام) والتي كان يأتيها الرزق رغدًا بصورة تعجب منها نبيُّ الله زكريا (عليه السلام) فقال لها كما ذكر لنا القرآن الكريم ذلك على لسانه ، فقال تعالى : {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} ، وفي موقف آخر على الرغم من ضعفها ومشقة الألم يأمرها الله سبحانه أن تهز جذع النخلة ليتساقط عليها الرطب ، ولو أراد الله تعالى أن يتساقط دون شيء لفعل ، ولكنه تعالى يعلمنا الأخذ بالأسباب وبذل الجهد ، قال تعالى : {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا} ، ولله در القائل :

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ * * وَلا تَرْغَبَنْ فِي العَجْزِ يَوْمًا عَنِ الطَّلَبْ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِمَرْيَمٍ * * وَهُزِّي إِلَيْكِ الجِذْعَ يَسَّاقَطِ الرُّطَبْ

وَلَوْ شَاءَ أَنْ تَجْنِيهِ مِنْ غَيْرِ هَزَّةٍ * * جَنَتْهُ وَلَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبْ

وهذا ذو القرنين الذي طوى الله تعالى له الأرض شرقًا وغربًا ، لما مرَّ على القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً لاستعجام كلامهم وبعدهم عن الناس ، اشتكوا إليه ظلم يأجوج ومأجوج ، وإغارتهم عليهم ، وإفسادهم لأموالهم وزروعهم وأنفسهم ، قالوا كما قص القرآن الكريم : {يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا} ، فاكفنا شرهم ، ولك الأجر والعطاء ، فسلك بهم طريق الأخذ بالأسباب ، واستثمر طاقاتهم المهدرة ، وحرك قوتهم المعطلة ، وجعلهم يتعلمون كيف يعتمدون على أنفسهم لا على غيرهم في قضاء مصالحهم ، فتحولوا بذلك أعوانًا له ، لا عالة عليه ، وحكى القرآن الكريم ذلك على لسانه ، حيث قال تعالى : {فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} ، ثم عندما بذل جهده في الأخذ بالأسباب ، وأتم البناء نسب الفضل لله (عز وجل) : {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا} .

ولقد ضرب لنا نبينا الكريم (صلى الله عليه وسلم) أروع الأمثلة في الأخذ بالأسباب في رحلة الهجرة المباركة ، حيث علّم النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) أمته أن التخطيط المحكم ، والترتيب الدقيق ضرورة من ضرورات النجاح ، وتخطي الأزمات، فقد جهز النبي (صلى الله عليه وسلم) راحلتين ، واختار الصاحب الأمين ، وحدد الوقت والمكان المناسب للخروج والانطلاق ، فخرجا ليلاً من بيت أبي بكر (رضي الله عنه) ، واختار دليلاً ماهرًا إيمانًا منه (صلى الله عليه وسلم) بتقديم الكفاءات ، واستثمار الطاقات ، مهما اختلفت الأفكار والرؤى ، أو حتى العقائد ، ثم

كلف (صلى الله عليه وسلم) عامر بن فهيرة (رضي الله عنه) بتتبع آثارهما للعمل على إخفائها أخذًا بالأسباب ، وهو يدرك غاية الإدراك أن الله كفيل به هو وصاحبه ، غير أنه (صلى الله عليه وسلم) أراد أن يعلمنا أن سنة الله تعالى في كونه تقتضي الأخذ بالأسباب ، ثم تفويض الأمر لله (عز وجل) .

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللَّهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ سيدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُه ورسُولُه ، اللهُمَّ صَلِّ وسلمْ وَبارِك عليهِ ، وَعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إلِىَ يومِ الدِّين .

إخوة الإسلام :

إن الأخذ بالأسباب لا يتعارض ولا يتنافى مع التوكل على الله (عز وجل) ، فإن من علم حقيقة التوكل اجتهد في الأخذ بالأسباب ، فالمتوكل الحقيقي يأخذ بالأسباب ، ويبذل طاقته وجهده ، ويرد الأمر كله لله صاحب التوفيق والفضل والعون، قال تعالى : {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} ، وفي تطبيق عمليٍّ لمعنى التوكل على الله يقول النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) : (لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا) ، فالطيرُ لا تدخر طعامًا ولا شرابًا ، غير أنها لا تكسل عن السعي وطلب الرزق ، فإنها تبدأ مع الصباح في السعي والانطلاق والبحث ، وتعود وقد رزقها الله تعالى من فضله ما يكفيها ، فهي تغدو وتروح ، وهذه غريزة وفطرة تتسق وحركة الحياة ، ولو كان عندها ما يكفيها عمرها كله ، ما كسلت ، ولا ركنت إلى الدعة، بل تستمر في سعيها ، وبحثها ، وخروجها كل صباح .

لقد كان (صلى الله عليه وسلم) يعلم أصحابه المعنى الحقيقي للأخذ بالأسباب في الأمور كلها ، وينهى عن التواكل الذي يضر ولا ينفع ، ولا نبالغ إذا قلنا : إننا نأثم ونظلم أنفسنا وأبناءنا حين لا نأخذ بأسباب التقدم والرقي ، فديننا دين العلم والرقي والحضارة والجمال والنفع للناس أجمعين ، فقد قَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أُطْلِقُ نَاقَتِي وَأَتَوَكَّلُ؟ أَوْ أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ)، فربط الناقة أخذًا بالأسباب لضمان بقائها ، أما تركها فأدعى لسرقتها ، أو ضياعها .

ولقد فقه الصحابة والتابعون الكرام ذلك من النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وطبقوه عمليًّا ، قال سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : " لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : اللهم ارزقني ، وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ، ولا فضة" ، وحينما أَتَى عَلَى قَوْمٍ لا يعملون ، فَقَالَ : مَا أَنْتُمْ؟ فقَالُوا : نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ ، فقَالَ : بَلْ أَنْتُمُ الْمُتَّكِلُونَ ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُتَوَكِّلِينَ؟ رَجُلٌ أَلْقَى حَبَّةً فِي بَطْنِ الْأَرْضِ ، ثُمَّ تَوَكَّلَ عَلَى رَبِّهِ ، وقال الأزرق بن قيس : كنا على شاطئ نهر بالأهواز قد نضب عنه الماء ، فجاء أبو برزة الأسلمي على فرس فصلى ، وخلى فرسه ، فانطلقت الفرس ، فترك صلاته ، وتبعها حتى أدركها ، فأخذها ، ثم جاء فقضى صلاته ، وفينا رجل له رأي ، فأقبل يقول : انظروا إلى هذا الشيخ ، ترك صلاته من أجل فرس ! فقال أبو برزة : ما عنفني أحد منذ فارقت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ثم قال : إن منزلي بعيد ، فلو صليت وتركت ، لم آتِ أهلي إلى الليل ، وهذا فهم حقيقي لمعنى الأخذ بالأسباب الذي دعا إليه ديننا الحنيف الذي أمرنا بالأخذ بالأسباب والتوكل ، ويكافئ كل مجتهد بقدر سعيه وجهده ، قال الله تعالى : {وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى} .

اللهم وفقنا لما فيه صالح ديننا ، ورفعة شعبنا،
ورقي بلادنا، وسائر بلاد العالمين .